المحور الحادي عشر: الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم

لم يكن احتلال الوندال لبلاد المغرب القديم أمرا مفاجئا، بل جاء نتيجة لظروف شهدتها المنطقة، حيث عرفت بلاد المغرب القديم منذ مطلع القرن الرابع ميلادي ظهور العديد من الإمارات المحلية المستقلة على أنقاض الاحتلال الروماني المتداعي، وقد رفعت هذه الامارات المغاربية لواء الحركة الاستقلالية في وجه الاستعمار الروماني، مما جعل المنطقة تخرج عن السيطرة الرومانية. وما تعلق بالوضع الداخلي للإمبراطورية الرومانية نفسها وما أصابها من ضعف.

1- التعريف بالوندال:

اختلف المؤرخون في معرفة الوطن الأصلي للوندال، وكل ما يمكننا أن نستشفه من هذه الروايات التي تناولت تاريخهم، هو أن هذه العناصر انحدرت من السلالات النوردية (الشمالية). ويرى كورتوا ، وهذا اعتمادا على علم المواقعية"Toponymie" أن اسم الوندال ربما يكون مشتقا من اسم قرية سويدية تدعى " وندل" " Vendet" في أوبلاند ، وهو ما جعله يرى في هذه المنطقة موطنا أصليا للوندال، وهذا خلافا للدراسات اللغوية التي تعتبر الوندال أقرب الى الدانماركيين منهم الى السويديين[437].

وهناك من يرى أنهم قوم جرمان جاوروا الحدود الرومانية الشمالية الممتدة بين نهري الراين والدانوب خلال القرن الرابع في شكل أحلاف منحوا اقليم داشيا، وكان أصلهم من بلاد اسكندنافيا التي غادروها أواخر الألف الأولى قبل الميلاد نحو جنوبي بحر البلطيق ثم استقروا بألمانيا. وقد ذكر الكتاب الرومان انهم ينتمون إلى جذمين كبيرين من حيث المواصفات الاجتماعية، أحدهما وصف بالتمنطق بالحمائل (أحزمة عريضة) ويدعي قومه بالسيلينغ Siling و الآخر عرف أفراده بترك شعر الرأس ينمو ويسدل كالنسوة، وهم الهسدينغ Hasdings وكلهم يعتنق المسيحية على المذهب الأريوسي بحكم الجوار.

في أوائل القرن الرابع اخترقت مجموعة كبيرة من الوندال نهر الراين في اتجاه بلاد الغال ومنها إلى اسبانيا حيث استقروا هنالك وانتشرت قبائلهم في مقاطعاتها وأطلقوا اسم «فندلوسيا» على القسم الجنوبي منها لاكسابه معنى الموطن الدائم لأولئك القوم. وهو الاسم الذي حرفه العرب في ما بعد إلى أندلس [438].

2- أسباب الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب القديم:

أهم محفزات وعوامل الاحتلال الوندالي لبلاد المغرب التي أشار إليها معظم المؤرخين كانت سياسية أو اقتصادية من بينها مايلي:

*- يبدو من خلال التفسيرات المختلفة التي ساقها المؤرخون أن الهدف الأسمى للوندال كان يتمثل في الاستيلاء على روما عاصمة العالم المتوسطي. وبما ان الطريق إلى هذه المدينة المرموقة عبر جبال الألب انطلاقا من وراء الراين كان متعذرا فانهم اهتدوا إلى طريق أطول عبر اسبانيا وشمال إفريقيا وصقلية، فيتم لهم أثناء ذلك بتر أطراف الإمبراطورية ومحاصرتها لإضعافها وحملها على الاستسلام عند مهاجمتها.

وبما أنهم نجحوا بسهولة في اجتياز نصف الطريق باحتراقهم بلاد الغال والاستقرار بإسبانيا فإن نصف الطريق الباقي هو شمال افريقيا الذي كانت الحماية الرومانية فيه ضعيفة وتنخره الانقسامات وتتربص به امارات القبائل المورية التي كانت تتحين الفرص لتحقيق مطامحها في استعادة حريتها وبسط نفوذها على أوسع ما يمكن من أراضي المقاطعات الرومانية.

*- استنجاد والي افريقيا "بونيفاس" بالوندال ، اثر ارسال الإمبراطورة "بلاكيديا" وابنها "فلانتيانوس" القوات لإخضاعه، بعد رفض عودته إلى "الرافن"سنة427م، حيث اعتبر هذا الرفض في نظر الوشاة دليلا كافيا على نوايا "بونيفاس" الاستقلال بإفريقيا[439].

*- حرص وندال إسبانيا على السبق إلى الفوز بروما ومن ثم القبض على مقاليد الامبراطورية قبل أن تصل إليها أيدي الشعوب الجرمانية الأخرى من القوط الذين كانوا على علاقة تحالف مع الرومان وكانت تراودهم

الرغبة في الانقضاض على روما والاستئثار بممتلكاتها من دون جرمان الغرب (الوندال). فالأمر يتعلق بتنافس القوط والوندال على الظفر بالغنيمة الكبرى.

*- الوضع العام في افريقيا مهيأ، حيث كانت الثورات المحلية واحدة تلو الأخرى، بسبب ارهاق السكان بالضرائب، بالإضافة إلى الاضطهاد الديني الذي كان يمس خاصة الدوناتيين. حيث أمل الوندال أن يسرع الأهالي لمساعدتهم، من مور وكل المتعصبين والمضطهدين و الرومان غير راضيين، بالإضافة إلى الكونت بونيفاس[440].

*- اشتهار بلاد المغرب بالثراء الزراعي، حيث كانت الممون الرئيسي لإيطاليا بالقمح والمنتوجات الفلاحية المختلفة، وهذا ما رغب الوندال في الاستئثار بذلك ومنعه عن روما في اطار حصار غذائي يعجل بسقوطها في أيديهم[441].

*- اقتناع الوندال بأن بقاءهم بالأندلس يضعهم في عزلة عن العالم القديم، وقد يُمكن خصومهم القوط احلاف روما من محاصرتهم والقضاء عليهم، فضلا عن لهفتهم إلى اشباع نزوتهم في الغارة والمغانم التي تكون في متناول أيديهم عندما يستقرون بقرطاجة ذاك الموقع الملائم لممارسة هذا النشاط.

فإسبانيا كانت تمثل في أعينهم سجنا يهددهم بالفناء، بينما كانت شمال افريقيا الممتدة بمحاذاة البحر الداخلي" Mare Interum" الزاخر بالملاحة التجارية والمنفتح على الشرق والغرب وما يليهما من أقطار وثروات[442].

3- حملة الوندال على بلاد المغرب:

مايو من سنة429م اجتاز ملك الوندال جنسريق"Generic "سيرا على الأقدام اجتياز البحر نحو بلاد المور بصحبة شعبه الذي كان تعداده خمسة عشر ألف مقاتل وحوالي خمسة وستين ألفا من النساء والأطفال والشيوخ.

كان الانطلاق من شبه جزيرة طريفه "Julia traducta" الواقعة على الطرف الغربي من مضيق جبل طارق. غير أن النقطة التي وقع فيها الانزال الوندالي بالشاطئ الافريقي غير معروفة على وجه التحديد. إذ يرى

المؤرخين بعضهم أنها كانت طنجة والبعض الآخر يذكر سبتة أو مرفأ القصر الصغير الذي انطلقت منه حملة طارق بن زياد لفتح الأندلس. بينما يذهب البعض إلى أن الوندال تجنبوا الانزال بالمقاطعة الطنجية لبعدها عن الهدف المنشود، وأنهم واصلوا إبحارهم بمحاذاة الشواطئ الموريطانية في اتجاه الشرق إلى أن بلغوا نقطة تقابل ميناء الغزوات المدعو قديما (افراترس Afatres) بالمقاطعة القيصرية فانحرفوا نحو هذا الميناء الملائم وحطوا به رحالهم[443].

لم يصطدم الوندال بمقاومة تذكر قبل الوصول إلى حدود نوميديا، رغم ماصحب حملتهم من أعمال النهب والتخريب والتقتيل والتعذيب على مايذكر بوسيديوس وفيكتور دي فيتا[444].

تقدمت الجيوش الوندالية ، وعجز الرومان في التصدي لها ، حيث اضطر بوفيناس للانسحاب إلى "هيبو ريجيوس" بعد هزيمته في المعركة الأولى ،لكن الوندال حاصروه بها مدة أربعة عشر شهرا، رغم وصول أسبار على رأس قوات جديدة وانضمامه له، فقد انهزم الاثنان، واستولى جنسريق على المدينة سنة431م[445].

كان من نتيجتها وفاة بونيفاس القائد الأعلى لإفريقيا وأصبحت افريقيا بدون حامي، مما اضطر ايتيوس إلى عقد اتفاقية "هيبو ريجيوس" مع جنسريق "11فيفري435م"، التي هيمن الوندال بموجبها على مقاطعات موريطانيا الثلاث وجزء من نوميديا، و تعهد بالمقابل "جنسريق" بدفع غرامة مالية سنوية للإمبراطور، كما بعث بابنه هونريك إلى روما كرهينة.

تخلى جنسريق على المعاهدة المذكورة، بعد أن استعاد ابنه ، فاستولى على قرطاجة (19 أكتوبر 439 م) دون مقاومة تذكر وأخذ بعدها يعد العدة لمهاجمة جزر المتوسط، بعد أن جهز لذلك أسطولا، فكانت معاهدة 442م التي كانت لصالح الوندال الذين بسطوا نفوذهم على كل البروقنصلية وفي سنة 455م استولى الوندال على ما تبقى في يد الرومان بموجب معاهدة 442م، كإقليم طرابلس والموريطانيات الثلاث، ومدوا نفوذهم على كل الإقليم الشرقي من قادس الى معبد الفيلان ، وسيطروا بذلك على افريقيا ظاهريا على الاقل ما يقرب قرنا من الزمن[446].

4- موقف الأهالي والكنيسة من الاحتلال الوندالي:

أ- موقف الأهالي:

اتخذت العلاقات بين الأهالي والوندال شكلين، وتمثل الشكل الأول في التعاون الذي كان موجودا بين الطرفين، ويعود إلى ما قبل الحملة على روما سنة 455م ، وما يدعم ذلك ما ذكره فيكتور دي فيكتا. وقد تمثل الشكل الثاني من العلاقات في تغير الظروف بوفاة جنسريق، وبدأت ثورات الأهالي بدون توقف، منذ عهد ابنه هونريك، الذي غطت الحروب كل عهده، حيث خلفت ثورة الأوراس اعلان استقلال الأوراس وعلى اثرها بدأت تنمو تلك المماليك في افريقيا المستقلة عن الوندال في عهود تابعيه[447].

ب- موقف الكنيسة:

انقسام الكنيسة الأفريقية أوائل القرن الرابع أخذت مواقف الطرفين المنقسمين (الكاثوليكية والدوناتية) تتعاكس إزاء الأحداث، ففي حين كان الشق الدوناتي يعارض السلطة الامبراطورية وينحاز إلى الثوار المناوئين لها مثلما فعل مع فيرموس، كان الشق الكاثوليكي يقف في صف السلطة الامبراطورية ويناهض المتمردين والعصاة وجميع الأعمال المناهضة لسيادة روما في شمال افريقيا، وكان يوظف جميع ما لدى رجاله من قدرة جدلية لهذا الغرض مما جعل منه قوة اعلامية شديدة الفعالية لصالح الدولة، فكان الامبراطور يناصرهم وينحاز إليهم في منازعاتهم مع الدوناتيين، بدءا من مؤتمر" آرل Arle " الذي أدان الحركة الدوناتية واعتبرها انشقاقا إلى مرسوم "غراتيانوس" عام 377م القاضي بمصادرة كنائس الدوناتية ومنحها لخصومها الكاثوليك عقب ثورة فيرموس إلى المحاكمة التي أقامها هونوريوس عام 411 م ضد الدوناتيين وأتباعهم الدوارين بقرطاجة.

أما عن العلاقة بين الوندال ورجال الدين الأفارقة من المتعذر إجلاء خفاياها وتتبع تطوراتها بقدر يفي بغرض الباحث في هذا الموضوع. فالمصادر لا تتيح لنا سوى النزر اليسير مما يخص أساقفة قرطاجة والمقاطعات التي سيطرت عليها دولة الوندال.

إذ أن ما ورد عند فيكتور الفيتي مثلا يَنْصَبُّ على ما صدر من عقوبات في حق رجال الدين الكاثوليك وكنائسهم في عهد جنسريق أو ابنه هونيريك من بعده. ويبدو أن مضار تلك العقوبات تركزت في البلاد الواقعة تحت السيطرة المباشرة للوندال، وهذا ما جعل تطبيقها أمرا ميسورا، فأحدثت ذلك الأثر النفسي لدى كتاب العصر. أما نصيب موريطانيا تلك الاجراءات الزجرية فليس لدينا حوله ما يثبته أو ينفيه بل ربما كانت الكنائس الدوناتية بموريطانيا معفية منه. إذ أن الوندال لم يعتبروا تلك الكنائس في عداد مسؤولياتهم، وهو ما ظهر في المؤتمر الكنسي الذي تم عقده تحت رعاية ملك الوندال عام 525م حيث لم يدع ممثلي موريطانيا لحضوره باعتبار البلاد خارج سيطرتهم فلم يحضر سوى ممثل واحد بصفة ،رمزية جاء من مدينة مينا[448].